الغزالي

كتاب التوبة

كِتَابُ ٱلتَّوْبَةِ

لِلإِمَامِ حُجَّةِ ٱلإِسْلَامِ أَبِي حامِدٍ مُحَمَّدِ بن مُحَمَّدٍ ٱلغَزَالِي

وَبِهامِشِهِ تَعْلِيقَاتٌ مِنَ ٱلكِتَابِ ٱلمُقَدَّسِ

مُنَاسِبَةٌ لِلمَوْضُوعِ

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت ١٩٢٤

كِتَابُ ٱلتَّوْبَةِ

لِلإِمَامِ حُجَّةِ ٱلإِسْلَامِ أَبِي حَامِدٍ مُحَمَّدِ بن مُحَمَّدٍ ٱلغَزَالِي
وَبِهَامِشِهِ تَعْلِيقَاتٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُقَدَّسِ
مُنَاسِبَةٌ لِلْمَوْضُوعِ

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت ١٩٢٤

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَبِ ٱلْأَنْوَارِ ٱلَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلَا ظِلُّ دَوَرَانٍ ٱلَّذِي يُنِيرُ بِنِعْمَتِهِ ٱلْعَامَّةِ كُلَّ إِنْسَانٍ وَلَا يَحْرِمُ أُمَّةً وَلَا شَعْبًا لَا شَرْقًا وَلَا غَرْبًا . لِأَنَّهُ ٱلنُّورُ ٱلَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتٍ إِلَى ٱلْعَالَمِ

أَمَّا بَعْدُ إِنَّهُ لَمَّا كَانَ كِتَابُ إِحْيَاءِ ٱلدِّينِ مِنْ أَفْصَحِ وَأَسْمَى كُتُبِ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ ٱلْعُصُورِ ٱلْغَابِرَةِ وَٱلْحَاضِرَةِ بِشَهَادَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْتَشْرِقِينَ رَأَيْنَا نِسْبَةً لِلظُّرُوفِ ٱلْحَاضِرَةِ ٱلَّتِي كَثُرَتْ فِيهَا ٱلْحُرُوبُ ٱلْأَخْلَاقِيَّةُ أَنْ نَخْتَارَ مِنَ ٱلرُّبْعِ ٱلرَّابِعِ مِنْهُ ٱلَّذِي مَوْضُوعُهُ ٱلْمُنْجِيَاتُ كِتَابَ ٱلتَّوْبَةِ بِٱخْتِصَارٍ قَلِيلٍ وَطَبَعْنَا هٰذَا ٱلْكُتَيِّبَ طَبْعَةً حَسَنَةً مُشَكَّلَةً لِكَيْ يَسْتَعْمِلَهَا وَيَفْهَمَهَا ٱلْجَمِيعُ . وَلَمَّا كَانَ ٱلْغَزَالِيُّ يَقْتَبِسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمَسِيحِيَّةِ وَٱلْأَحَادِيثِ ٱلْقُدْسِيَّةِ رَأَيْنَا لِزِيَادَةِ ٱلْفَائِدَةِ أَنْ نُعَلِّقَ عَلَى أَقْوَالِهِ مِنْ كِتَابِ ٱللهِ وِفْقًا لِمَا قَالَهُ سُلَيْمَانُ ٱلْحَكِيمُ "تُفَّاحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي مَصُوغٍ مِنْ فِضَّةٍ" امثال سليمان ٢٥:١١ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقِ ٱلتَّوْبَةِ لِأَنَّهَا وَحْدَهَا طَرِيقُ ٱلْخَلَاصِ . وَيَجْعَلُ ٱلْمَسِيحِيِّينَ أَجْمَعِينَ يُقَدِّرُونَ ٱلْحَقَائِقَ ٱلثَّمِينَةَ ٱلْمَوْجُودَةَ فِي ٱلْكُتُبِ حَقَّ قَدْرِهَا وَيَسْتَعْمِلُونَهَا كَمُرْشِدٍ لِإِخْوَتِنَا ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى ٱلْمَسِيحِ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْمَجْدُ آمِينَ

مقدمة

(أما بعد) فإنَّ التوبة عن الذنوب. بالرجوع إلى ستّار العيوب وعلّام الغيوب. مبدأ طريق السالكين. ورأس مال الفائزين. وأوّل إقدام المريدين[1]. ومفتاح استقامة المائلين. ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرَّبين. ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين. وما أجدر بالأولاد. الاقتداء بالآباء والأجداد فلا غرو إن أذنب الآدميّ وأجرم. فهي شنشنة يعرفها من أخزم. ومن أشبه أباهُ فما ظلم. ولكنّ الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمَّر بعد أن هدم. فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم. ولقد قرع آدم سنَّ الندم. وتندّم على ما سبق منهُ وتقدّم. فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلّت به القدم. بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين. والتجرّد للشرّ دون التلافي سجيّة الشياطين. والرجوع

(١) توبوا وارجعوا تُمحى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الربّ — أعمال الرسل ٣: ١٩

إِلَى الْخَيْرِ بَعْدَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ ضَرُورَةُ الآدَمِيِّينَ فَالْمُتَجَرِّدُ لِلْخَيْرِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ عِنْدَ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ . وَالْمُتَجَرِّدُ لِلشَّرِّ شَيْطَانٌ . وَالْمُتَلَافِي لِلشَّرِّ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْخَيْرِ بِالْحَقِيقَةِ إِنْسَانٌ . فَقَدِ ازْدَوَجَ فِي طِينَةِ الإِنْسَانِ شَائِبَتَانِ . وَاصْطَحَبَ فِيهِ سَجِيَّتَانِ . وَكُلُّ عَبْدٍ مُصَحِّحٌ نَسَبَهُ إِمَّا إِلَى الْمَلَكِ او إِلَى آدَمَ او إِلَى الشَّيْطَانِ . فَالتَّائِبُ قَدْ أَقَامَ الْبُرْهَانَ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِ إِلَى آدَمَ بِمُلَازَمَةِ حَدِّ الإِنْسَانِ . وَالْمُصِرُّ عَلَى الطُّغْيَانِ . مُسَجِّلٌ عَلَى نَفْسِهِ بِنَسَبِ الشَّيْطَانِ . فَأَمَّا تَصْحِيحُ النَّسَبِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ بِالتَّجَرُّدِ لِمَحْضِ الْخَيْرِ فَخَارِجٌ عَنْ حَيِّزِ الإِمْكَانِ . فَإِنَّ الشَّرَّ[1] مَعْجُونٌ مَعَ الْخَيْرِ فِي طِينَةِ آدَمَ عَجْنًا مُحْكَمًا لَا يُخَلِّصُهُ إِلَّا إِحْدَى النَّارَيْنِ . نَارُ النَّدَمِ أَوْ نَارُ جَهَنَّمَ فَالإِحْرَاقُ بِالنَّارِ ضَرُورِيٌّ فِي تَخْلِيصِ جَوْهَرِ الإِنْسَانِ مِنْ خَبَائِثِ الشَّيْطَانِ وَإِلَيْكَ الآنَ اخْتِيَارُ أَهْوَنِ النَّارَيْنِ . وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى أَخَفِّ الشَّرَّيْنِ . قَبْلَ أَنْ يُطْوَى بِسَاطُ الاخْتِيَارِ . وَيُسَاقُ إِلَى دَارِ الاضْطِرَارِ . إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ . وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ مَوْقِعُهَا

(١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ وَهَكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ الى جَمِيعِ النَّاسِ اذ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ — رومية ٥ : ١٢

مِنَ ٱلدِّينِ هٰذَا ٱلمَوْقِعُ وَجَبَ تَقْدِيمُهَا فِي صَدْرِ رُبْعِ ٱلْمُنْجِيَاتِ وَبِشَرْحِ حَقِيقَتِهَا وَشُرُوطِهَا وَسَبَبِهَا وعَلَامَتِهَا وَثَمَرَتِهَا وَٱلآفَاتِ ٱلمَانِعَةِ مِنْهَا وَٱلأَدْوِيَةِ ٱلمُيَسِّرَةِ لَهَا

بَيَانُ حَقِيقَةِ ٱلتَّوْبَةِ وَحَدِّهَا

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلتَّوْبَةَ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْنًى يَنْتَظِمُ مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ مُرَتَّبَةٍ عِلْمٌ وَحَالٌ وَفِعْلٌ فَٱلعِلْمُ ٱلأَوَّلُ وَٱلحَالُ ٱلثَّانِي. وَٱلفِعْلُ ٱلثَّالِثُ وَٱلأَوَّلُ مُوجِبٌ لِلثَّانِي وَٱلثَّانِي مُوجِبٌ لِلثَّالِثِ إِيجَابًا ٱقْتَضَاهُ ٱطِّرَادُ سُنَّةِ ٱللهِ فِي ٱلمُلْكِ. وَٱلمَلَكُوتِ. أَمَّا ٱلعِلْمُ. فَهُوَ مَعْرِفَةُ عِظَمِ ضَرَرِ ٱلذُّنُوبِ. وَكَوْنِهَا حِجَابًا بَيْنَ ٱلعَبْدِ[1] وَبَيْنَ كُلِّ مَحْبُوبٍ. فَإِذَا عَرَفَ ذٰلِكَ مَعْرِفَةً مُحَقَّقَةً بِيَقِينٍ غَالِبٍ عَلَى قَلْبِهِ ثَارَ مِنْ هٰذِهِ ٱلمَعْرِفَةِ تَأَلُّمٌ لِلْقَلْبِ بِسَبَبِ فَوَاتِ ٱلمَحْبُوبِ فَإِنَّ ٱلقَلْبَ مَهْمَا شَعَرَ بِفَوَاتِ مَحْبُوبِهِ تَأَلَّمَ فَإِنْ كَانَ فَوَاتُهُ بِفِعْلِهِ تَأَسَّفَ عَلَى ٱلفِعْلِ ٱلمُفَوِّتِ فَيُسَمَّى تَأَلُّمُهُ بِسَبَبِ فِعْلِهِ ٱلمُفَوِّتِ لِمَحْبُوبِهِ نَدَمًا فَإِذَا غَلَبَ هٰذَا ٱلأَلَمُ عَلَى ٱلقَلْبِ

(١) بَلْ آثَامُكُمْ صَارَتْ فَاصِلَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِلٰهِكُمْ وَخَطَايَاكُمْ سَتَرَتْ وَجْهَهُ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ – اشعياء ٥٩ : ٢

وَٱسْتَوْلَى ٱنْبَعَثَ مِنْ هٰذَا ٱلْأَلَمِ فِي ٱلْقَلْبِ حَالَةٌ أُخْرَى تُسَمَّى إِرَادَةً وَقَصْدًا إِلَى فِعْلٍ لَهُ تَعَلُّقٌ بِٱلْحَالِ وَبِٱلْمَاضِي وَبِٱلِٱسْتِقْبَالِ. امَّا تَعَلُّقُهُ بِٱلْحَالِ فَبِٱلتَّرْكِ لِلذَّنْبِ ٱلَّذِي كَانَ مُلَابِسًا وَأَمَّا بِٱلِٱسْتِقْبَالِ فَبِٱلْعَزْمِ عَلَى تَرْكِ ٱلذَّنْبِ ٱلْمُفَوِّتِ لِلْمَحْبُوبِ إِلَى آخِرِ ٱلْعُمْرِ وَامَّا بِٱلْمَاضِي فَتَلَافِي مَا فَاتَ بِٱلْجَبْرِ وَٱلْقَضَاءِ إِنْ كَانَ قَابِلًا لِلْجَبْرِ فَٱلْعِلْمُ (١) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ مَطْلَعُ هٰذِهِ ٱلْخَيْرَاتِ وَأَعْنِي بِهٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْإِيمَانَ وَٱلْيَقِينَ فَإِنَّ ٱلْإِيمَانَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلتَّصْدِيقِ بِأَنَّ ٱلذُّنُوبَ سُمُومٌ مُهْلِكَةٌ وَٱلْيَقِينُ عِبَارَةٌ عَنْ تَأَكُّدِ هٰذَا ٱلتَّصْدِيقِ وَٱنْتِفَاءِ ٱلشَّكِّ عَنْهُ وَٱسْتِيلَائِهِ عَلَى ٱلْقَلْبِ فَيُثْمِرُ نُورُ هٰذَا ٱلْإِيمَانِ مَهْمَا أَشْرَقَ عَلَى ٱلْقَلْبِ نَارَ ٱلنَّدَمِ فَيَتَأَلَّمُ بِهَا ٱلْقَلْبُ حَيْثُ يُبْصِرُ بِإِشْرَاقِ نُورِ ٱلْإِيمَانِ أَنَّهُ صَارَ مَحْجُوبًا عَنْ مَحْبُوبِهِ كَمَنْ يُشْرِقُ عَلَيْهِ نُورُ ٱلشَّمْسِ وَقَدْ كَانَ فِي ظُلْمَةٍ فَيَسْطَعُ ٱلنُّورُ عَلَيْهِ بِٱنْقِشَاعِ سَحَابٍ أَوِ ٱنْحِصَارِ حِجَابٍ فَرَأَى مَحْبُوبَهُ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى ٱلْهَلَاكِ فَتَشْتَعِلُ نِيرَانُ ٱلْحُبِّ فِي قَلْبِهِ وَتَنْبَعِثُ تِلْكَ ٱلنِّيرَانُ

(١) فَكُلُّ صَلوةٍ وَكُلُّ تَضَرُّعٍ تَكُونُ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ كَانَ مِنْ كُلِّ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ ٱلَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُلُّ وَاحِدٍ ضَرْبَةَ قَلْبِهِ فَيَبْسُطُ يَدَيْهِ نَحْوَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ. فَٱسْمَعْ أَنْتَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَكَانِ سُكْنَاكَ وَٱغْفِرْ وَٱعْمَلْ وَأَعْطِ كُلَّ إِنْسَانٍ حَسَبَ كُلِّ طُرُقِهِ كَمَا تَعْرِفُ قَلْبَهُ. لِأَنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ قَدْ عَرَفْتَ قُلُوبَ كُلِّ بَنِي ٱلْبَشَرِ
سفر الملوك الاول ٨: ٣٨

بإرادته للانتهاض للتدارك . فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه السلام الندم توبة (١) إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوظا بطرفيه أعني ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة أنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل (٢) الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث

(١) لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به وأما العشارون والزواني فآمنوا به وأنتم اذ رأيتم لم تندموا أخيرا لتؤمنوا به – متى ٢١: ٣٢

(٢) ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات متى ١٨: ٣

مِنَ ٱلتَّوْبَةِ وَٱلأَقاوِيلِ فِي حُدُودِ ٱلتَّوْبَةِ لَا تَنْحَصِرُ وَإِذَا فَهِمْتَ هٰذِهِ ٱلمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةَ وَتَلَازُمَهَا وَتَرْتِيبَهَا عَرَفْتَ أَنَّ جَمِيعَ مَا قِيلَ فِي حُدُودِهَا قَاصِرٌ عَنِ ٱلإِحَاطَةِ بِجَمِيعِ مَعَانِيهَا وَطَلَبُ ٱلعِلْمِ بِحَقَائِقِ ٱلأُمُورِ أَهَمُّ مِنْ طَلَبِ ٱلأَلْفَاظِ ٱلمُجَرَّدَةِ

بَيَانُ وُجُوبِ ٱلتَّوْبَةِ وَفَضْلِهَا

إِعْلَمْ أَنَّ وُجُوبَ (١) ٱلتَّوْبَةِ ظَاهِرٌ بِٱلأَخْبَارِ وَٱلآيَاتِ وَهُوَ وَاضِحٌ بِنُورِ ٱلبَصِيرَةِ عِنْدَ مَنِ ٱنْفَتَحَتْ بَصِيرَتُهُ وَشَرَحَ ٱللّٰهُ بِنُورِ ٱلإِيمَانِ صَدْرَهُ حَتَّى ٱقْتَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْعَى بِنُورِهِ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ فِي ظُلُمَاتِ ٱلجَهْلِ مُسْتَغْنِيًا عَنْ قَائِدٍ يَقُودُهُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ فَٱلسَّالِكُ إِمَّا أَعْمَى لَا يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلقَائِدِ فِي خُطْوِهِ وَإِمَّا بَصِيرٌ يُهْدَى إِلَى أَوَّلِ ٱلطَّرِيقِ ثُمَّ يَهْتَدِي بِنَفْسِهِ وَكَذٰلِكَ ٱلنَّاسُ فِي طَرِيقِ ٱلدِّينِ يَنْقَسِمُونَ هٰذَا ٱلٱنْقِسَامَ فَمِنْ قَاصِرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُجَاوَزَةِ ٱلتَّقْلِيدِ فِي خُطْوِهِ فَيَفْتَقِرُ إِلَى أَنْ يَسْمَعَ فِي كُلِّ قَدَمٍ نَصًّا مِنْ كِتَابِ

(١) لَا يَتَبَاطَأُ ٱلرَّبُّ عَنْ وَعْدِهِ كَمَا يَحْسِبُ قَوْمٌ ٱلتَّبَاطُوَ لٰكِنَّهُ يَتَأَنَّى وَهُوَ لَا يَشَاءُ أَنْ يَهْلِكَ أُنَاسٌ بَلْ أَنْ يُقْبِلَ ٱلجَمِيعُ الى ٱلتَّوْبَةِ = بطرس الرسالة الثانية ٣: ٩

ٱللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ وَرُبَّمَا يُعْوِزُهُ ذٰلِكَ فَيَتَحَيَّرُ فَسَيْرُ هٰذَا
وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ وَعَظُمَ جِدُّهُ مُخْتَصَرٌ وَخُطَاهُ قَاصِرَةٌ.
وَمِنْ سَعِيدٍ شَرَحَ ٱللهُ صَدْرَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَيَتَنَبَّهُ
لِطَرِيقٍ مَعُوصَةٍ وَقَطْعِ عَقَبَاتٍ مُتْعِبَةٍ وَيُشْرِقُ فِي قَلْبِهِ نُورُ
ٱلْإِيمَانِ وَهُوَ لِشِدَّةِ نُورِ بَاطِنِهِ يَجْتَزِئُ بِأَدْنَى بَيَانٍ يَكَادُ زَيْتُهُ
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ فَإِذَا مَسَّتْهُ نَارٌ فَهُوَ نُورٌ عَلَى نُورٍ
يَهْدِي (١) ٱللهُ لِنُورِهِ مَنْ شَاءَ وَهٰذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ مَنْقُولٍ
فِي كُلِّ وَاقِعَةٍ فَمَنْ هٰذَا حَالُهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ وَاجِبَ
ٱلتَّوْبَةِ فَيَنْظُرُ أَوَّلًا بِنُورِ ٱلْبَصِيرَةِ إِلَى ٱلتَّوْبَةِ كَمَا هِيَ ثُمَّ
إِلَى ٱلْوَاجِبِ مَا مَعْنَاهُ ثُمَّ يَجْمَعُ بَيْنَ مَعْنَى ٱلْوَاجِبِ وَٱلتَّوْبَةِ
فَلَا يَشُكُّ فِي ثُبُوتِهِ لَهَا وَذٰلِكَ بِأَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّ مَعْنَى
ٱلْوَاجِبِ مَا هُوَ وَاجِبٌ فِي ٱلْوُصُولِ إِلَى سَعَادَةِ ٱلْأَبَدِ
وَٱلنَّجَاةِ مِنْ هَلَاكِ ٱلْأَبَدِ فَإِنَّهُ لَوْلَا تَعَلُّقُ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلشَّقَاوَةِ
بِفِعْلِ ٱلشَّيْءِ وَتَرْكِهِ لَمْ يَكُنْ لِوَصْفِهِ بِكَوْنِهِ وَاجِبًا مَعْنًى
وَقَوْلُ ٱلْقَائِلِ صَارَ وَاجِبًا بِٱلْإِيجَابِ حَدِيثٌ مَحْضٌ فَإِنَّ مَا
لَا غَرَضَ لَنَا آجِلًا وَعَاجِلًا فِي فِعْلِهِ وَتَرْكِهِ فَلَا مَعْنًى

(١) افعلوا كل شيء بلا دمدمة ولا مجاولة لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء أولادا لله في وسط جيل معوج وملتو تضيئون بينهم كأنوار في العالم. فيلبي ٢:١٥

لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً وعلم أنه لا مقرب[1] من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين[2] أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب

(١) لذلك أخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فأقبلكم ٢كو٦:١٧

(٢) أيها الزناة والزواني أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله (يعقوب ٤:٤)

لَمْ يَنْدَمْ وَلَمْ يَتَوَجَّعْ بِسَبَبِ سُلُوكِهِ فِي طَرِيقِ ٱلْبُعْدِ وَمَا لَمْ يَتَوَجَّعْ فَلَا يَرْجِعُ . وَمَعْنَى ٱلرُّجُوعِ ٱلتَّرْكُ وَٱلْعَزْمُ فَلَا يَشُكُّ فِي أَنَّ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةَ ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْوُصُولِ إِلَى ٱلْمَحْبُوبِ وَهٰكَذَا يَكُونُ ٱلإِيمَانُ ٱلْحَاصِلُ عَنْ نُورِ ٱلْبَصِيرَةِ . وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَتَرَشَّحْ لِمِثْلِ هٰذَا ٱلْمَقَامِ ٱلْمُرْتَفِعَةِ ذُرْوَتُهُ عَنْ حُدُودِ أَكْثَرِ ٱلْخَلْقِ فَفِي ٱلتَّقْلِيدِ وَٱلِاتِّبَاعِ لَهُ مَجَالٌ رَحْبٌ يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى ٱلنَّجَاةِ مِنَ ٱلْهَلَاكِ فَلْيُلَاحِظْ فِيهِ قَوْلَ ٱللّٰهِ وَقَوْلَ رَسُولِهِ وَقَوْلَ ٱلسَّلَفِ ٱلصَّالِحِينَ فَقَدْ قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى (وَتُوبُوا إِلَى ٱللّٰهِ جَمِيعًا (١) أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَهٰذَا أَمْرٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَقَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللّٰهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) وَمَعْنَى ٱلنَّصُوحِ ٱلْخَالِصُ لِلّٰهِ تَعَالَى خَالِيًا عَنِ ٱلشَّوَائِبِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلنُّصْحِ وَيَدُلُّ عَلَى فَضْلِ ٱلتَّوْبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٱلتَّائِبُ حَبِيبُ ٱللّٰهِ وَٱلتَّائِبُ مِنَ ٱلذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَقَالَ رَسُولُ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلّٰهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ ٱلْعَبْدِ

(١) فَاللّٰهُ الآنَ يَأْمُرُ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ يَتُوبُوا مُتَغَاضِيًا عَنْ أَزْمِنَةِ ٱلْجَهْلِ (اع ١٧ : ٣٠)

ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَٱسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا ٱشْتَدَّ عَلَيْهِ ٱلْحَرُّ وَٱلْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ ٱللهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي ٱلَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَٱسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ فَٱللهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ(١) ٱلْعَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ هٰذَا بِرَاحِلَتِهِ وَفِي بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ قَالَ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ إِذَا أَرَادَ شُكْرَ ٱللهِ أَنَا رَبُّكَ وَأَنْتَ عَبْدِي . وَيُرْوَى عَنِ ٱلْحَسَنِ قَالَ لَمَّا تَابَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هَنَّأَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهَبَطَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ فَقَالَا يَا آدَمُ قَرَّتْ عَيْنُكَ بِتَوْبَةِ ٱللهِ عَلَيْكَ فَقَالَ آدَمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَا جِبْرِيلُ فَإِنْ كَانَ بَعْدَ هٰذِهِ ٱلتَّوْبَةِ سُؤَالٌ فَأَيْنَ مَقَامِي ؟ فَأَوْحَى ٱللهُ إِلَيْهِ يَا آدَمُ وَرَّثْتَ ذُرِّيَّتَكَ ٱلتَّعَبَ وَٱلنَّصَبَ وَوَرَّثْتُهُمُ ٱلتَّوْبَةَ فَمَنْ دَعَانِي مِنْهُمْ لَبَّيْتُهُ كَمَا لَبَّيْتُكَ وَمَنْ سَأَلَنِي(٢) ٱلْمَغْفِرَةَ لَمْ أَبْخَلْ عَلَيْهِ لِأَنِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ .

(١) أَقُولُ لَكُمْ أَنَّهُ هٰكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي ٱلسَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ (لوقا ٥ : ٧)

(٢) إِنِ ٱعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ

يَا آدَمُ وَأَحْشُرُ ٱلتَّائِبِينَ مِنَ ٱلْقُبُورِ مُسْتَبْشِرِينَ ضَاحِكِينَ وَدُعَاؤُهُمْ مُسْتَجَابٌ وَٱلْأَخْبَارُ وَٱلْآثَارُ فِي ذٰلِكَ لَا تُحْصَى وَٱلْإِجْتِمَاعُ مُنْعَقِدٌ مِنَ ٱلْأُمَّةِ عَلَى وُجُوبِهَا إِذْ مَعْنَاهُ ٱلْعِلْمُ بِأَنَّ ٱلذُّنُوبَ وَٱلْمَعَاصِيَ مُهْلِكَاتٌ وَمُبْعِدَاتٌ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى وَهٰذَا دَاخِلٌ فِي وُجُوبِ ٱلْإِيمَانِ وَلٰكِنْ قَدْ تُدْهِشُ ٱلْغَفْلَةُ عَنْهُ فَمَعْنَى هٰذَا ٱلْعِلْمِ إِزَالَةُ هٰذِهِ ٱلْغَفْلَةِ وَلَا خِلَافَ فِي وُجُوبِهَا وَمِنْ مَعَانِيهَا تَرْكُ ٱلْمَعَاصِي فِي ٱلْحَالِ وَٱلْعَزْمُ عَلَى تَرْكِهَا فِي ٱلْاِسْتِقْبَالِ وَتَدَارُكِ مَا سَبَقَ مِنَ ٱلتَّقْصِيرِ فِي سَابِقِ ٱلْأَحْوَالِ وَذٰلِكَ لَا يُشَكُّ فِي وُجُوبِهِ . وَأَمَّا ٱلتَّنَدُّمُ (١) عَلَى مَا سَبَقَ وَٱلتَّحَزُّنُ عَلَيْهِ فَوَاجِبٌ وَهُوَ رُوحُ ٱلتَّوْبَةِ وَبِهِ تَمَامُ ٱلتَّلَافِي فَكَيْفَ لَا يَكُونُ وَاجِبًا بَلْ هُوَ نَوْعُ أَلَمٍ يَحْصُلُ لَا مَحَالَةَ عَقِيبَ حَقِيقَةِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِمَا فَاتَ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَضَاعَ فِي سَخَطِ ٱللهِ فَإِنْ قُلْتَ تَأَلُّمُ ٱلْقَلْبِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ ٱلْاِخْتِيَارِ فَكَيْفَ يُوصَفُ بِٱلْوُجُوبِ . فَٱعْلَمْ إِنَّ سَبَبَهُ تَحْقِيقُ ٱلْعِلْمِ بِفَوَاتِ ٱلْمَحْبُوبِ وَلَهُ سَبِيلٌ إِلَى تَحْصِيلِ سَبَبِهِ وَبِمِثْلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى دَخَلَ ٱلْعِلْمُ

وَعَادِلٌ حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ (ابو ١: ٩)

(١) لَكَ يَا سَيِّدُ ٱلْبِرُّ . أَمَّا لَنَا فَخِزْيُ ٱلْوُجُوهِ كَمَا هُوَ ٱلْيَوْمَ لِرِجَالِ يَهُوذَا وَلِسُكَّانِ أُورُشَلِيمَ وَلِكُلِّ إِسْرَائِيلَ ٱلْقَرِيبِينَ وَٱلْبَعِيدِينَ فِي كُلِّ ٱلْأَرَاضِي ٱلَّتِي طَرَدْتَهُمْ إِلَيْهَا

تَحْتَ ٱلْوُجُوبِ لَا بِمَعْنَى أَنَّ ٱلْعِلْمَ يَخْلُقُهُ ٱلْعَبْدُ وَيُحْدِثُهُ فِي نَفْسِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مُحَالٌ بَلِ ٱلْعِلْمُ وَٱلنَّدَمُ وَٱلْفِعْلُ وَٱلْإِرَادَةُ وَٱلْقُدْرَةُ وَٱلْقَادِرُ مِنْ خَلْقِ ٱللهِ وَفِعْلِهِ وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ هٰذَا هُوَ ٱلْحَقُّ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَبْصَارِ وَمَا سِوَى هٰذَا ضَلَالٌ. فَإِنْ قُلْتَ أَفَلَيْسَ لِلْعَبْدِ ٱخْتِيَارٌ فِي ٱلْفِعْلِ وَٱلتَّرْكِ قُلْنَا نَعَمْ وَذٰلِكَ لَا يُنَاقِضُ قَوْلَنَا إِنَّ ٱلْكُلَّ مِنْ خَلْقِ ٱللهِ تَعَالَى بَلِ ٱلِٱخْتِيَارُ[1] أَيْضًا مِنْ خَلْقِ ٱللهِ وَٱلْعَبْدُ مُضْطَرٌّ فِي ٱلِٱخْتِيَارِ ٱلَّذِي لَهُ فَإِنَّ ٱللهَ إِذَا خَلَقَ ٱلْيَدَ ٱلصَّحِيحَةَ وَخَلَقَ ٱلطَّعَامَ ٱللَّذِيذَ وَخَلَقَ ٱلشَّهْوَةَ لِلطَّعَامِ فِي ٱلْمِعْدَةِ وَخَلَقَ ٱلْعِلْمَ فِي ٱلْقَلْبِ بِأَنَّ هٰذَا ٱلطَّعَامَ يُسَكِّنُ ٱلشَّهْوَةَ وَخَلَقَ ٱلْخَوَاطِرَ ٱلْمُتَعَارِضَةَ فِي أَنَّ هٰذَا ٱلطَّعَامَ هَلْ فِيهِ مَضَرَّةٌ مَعَ أَنَّهُ يُسَكِّنُ ٱلشَّهْوَةَ وَهَلْ دُونَ تَنَاوُلِهِ مَانِعٌ يَتَعَذَّرُ مَعَهُ تَنَاوُلُهُ أَمْ لَا ثُمَّ خَلَقَ ٱلْعِلْمَ بِأَنَّهُ لَا مَانِعَ ثُمَّ عِنْدَ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَنْجَزِمُ ٱلْإِرَادَةُ ٱلْبَاعِثَةُ عَلَى ٱلتَّنَاوُلِ. فَٱنْجِزَامُ ٱلْإِرَادَةِ بَعْدَ تَرَدُّدِ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلْمُتَعَارِضَةِ وَبَعْدَ وُقُوعِ ٱلشَّهْوَةِ لِلطَّعَامِ يُسَمَّى ٱخْتِيَارًا وَلَا بُدَّ مِنْ

مِنْ أَجْلِ خِيَانَتِهِمِ ٱلَّتِي خَانُوكَ إِيَّاهَا — لِلرَّبِّ إِلٰهِنَا ٱلْمَرَاحِمُ وَٱلْمَغْفِرَةُ لِأَنَّنَا تَمَرَّدْنَا عَلَيْهِ

(دانيال ٩:٧–٩)

(١) وَحُسِبَتْ جَمِيعُ سُكَّانِ ٱلْأَرْضِ كَلَا شَيْءٍ وَهُوَ يَفْعَلُ كَمَا يَشَاءُ فِي جُنْدِ ٱلسَّمَاءِ وَسُكَّانِ ٱلْأَرْضِ وَلَا يُوجَدُ مَنْ يَمْنَعُ يَدَهُ أَوْ يَقُولُ لَهُ مَاذَا تَفْعَلُ

(دانيال ٤:٣٥)

حُصُولِهِ عِندَ تَمَامِ أَسْبَابِهِ فَإِذَا حَصَلَ انْجِزَامُ الإِرَادَةِ بِخَلْقِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهَا تَحَرَّكَتِ الْيَدُ الصَّحِيحَةُ إِلَى جِهَةِ الطَّعَامِ لَا مَحَالَةَ إِذْ بَعْدَ تَمَامِ الإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ يَكُونُ حُصُولُ الْفِعْلِ ضَرُورِيًّا فَتَحْصُلُ الْحَرَكَةُ فَتَكُونُ الْحَرَكَةُ بِخَلْقِ اللهِ بَعْدَ حُصُولِ الْقُدْرَةِ. وَانْجِزَامُ الإِرَادَةِ وَهُمَا أَيْضًا مِنْ خَلْقِ اللهِ. وَانْجِزَامُ الإِرَادَةِ يَحْصُلُ بَعْدَ صِدْقِ الشَّهْوَةِ. وَالْعِلْمُ بِعَدَمِ الْمَوَانِعِ وَهُمَا أَيْضًا مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى. وَلَكِنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ يَتَرَتَّبُ عَلَى الْبَعْضِ تَرْتِيبًا جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) فَلَا يَخْلُقُ اللهُ حَرَكَةَ الْيَدِ بِكِتَابَةٍ مَنْظُومَةٍ مَا لَمْ يَخْلُقْ فِيهَا صِفَةً تُسَمَّى قُدْرَةً وَمَا لَمْ يَخْلُقْ فِيهَا حَيَاةً وَمَا لَمْ يَخْلُقْ إِرَادَةً مَجْزُومَةً. وَلَا يَخْلُقُ الإِرَادَةَ الْمَجْزُومَةَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَهْوَةً وَمَيْلًا فِي النَّفْسِ وَلَا يَنْبَعِثُ هَذَا الْمَيْلُ انْبِعَاثًا تَامًّا مَا لَمْ يَخْلُقْ عِلْمًا بِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلنَّفْسِ إِمَّا فِي الْحَالِ أَوْ فِي الْمَآلِ

وَلَا يَخْلُقُ الْعِلْمَ أَيْضًا إِلَّا بِأَسْبَابٍ أُخَرَ تَرْجِعُ إِلَى

حَرَكَةٍ وَإِرَادَةٍ وَعِلْمٍ. فَٱلعِلْمُ وَٱلمَيْلُ ٱلطَّبْعِيُّ أَبَدًا يَسْتَتْبِعُ ٱلإِرَادَةَ ٱلجَازِمَةَ. وَٱلقُدْرَةُ وَٱلإِرَادَةُ أَبَدًا تَسْتَرْدِفُ ٱلحَرَكَةَ

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ ٱلتَّوْبَةَ وَاجِبَةٌ (١) بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا ٱلثَّلَاثَةِ ٱلعِلْمُ وَٱلنَّدَمُ وَٱلتَّرْكُ

(١) أَقُولُ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذٰلِكَ تَهْلِكُونَ (لو ١٣: ٣)

بَيَانُ أَنَّ وُجُوبَ ٱلتَّوْبَةِ عَلَى ٱلفَوْرِ

أَمَّا وُجُوبُهَا عَلَى ٱلفَوْرِ (١) فَلَا يُسْتَرَابُ فِيهِ إِذْ مَعْرِفَةُ كَوْنِ ٱلمَعَاصِي مُهْلِكَاتٍ مِنْ نَفْسِ ٱلإِيمَانِ وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى ٱلفَوْرِ وَٱلمُتَفَصِّي عَنْ وُجُوبِهِ هُوَ ٱلَّذِي عَرَفَهُ مَعْرِفَةً زَجَرَهُ ذٰلِكَ عَنِ ٱلفِعْلِ ٱلمَكْرُوهِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلمَعْرِفَةَ لَيْسَتْ مِنْ عُلُومِ ٱلمُكَاشَفَاتِ ٱلَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِعَمَلٍ بَلْ هِيَ مِنْ عُلُومِ ٱلمُعَامَلَةِ وَكُلُّ عِلْمٍ يُرَادُ لِيَكُونَ بَاعِثًا عَلَى عَمَلٍ فَلَا يَقَعُ ٱلتَّفَصِّي عَنْ عُهْدَتِهِ مَا لَمْ يَصِرْ بَاعِثًا عَلَيْهِ. فَٱلعِلْمُ بِضَرَرِ ٱلذُّنُوبِ إِنَّمَا أُرِيدَ لِيَكُونَ بَاعِثًا عَلَى تَرْكِهَا. فَمَنْ لَمْ يَتْرُكْهَا فَهُوَ فَاقِدٌ لِهٰذَا ٱلجُزْءِ مِنَ ٱلإِيمَانِ وَهُوَ

(١) ٱليَوْمَ إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلَا تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ كَمَا فِي مَرِيبَةَ مِثْلَ يَوْمِ مَسَّةَ فِي ٱلبَرِّيَّةِ مزمور ٩٥: ٧

ٱلْمُرَادُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لَا يَزْنِي ٱلزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَا أَرَادَ بِهِ نَفْيَ ٱلْإِيمَانِ ٱلَّذِي يَرْجِعُ إِلَى عُلُومِ ٱلْمُكَاشَفَةِ كَٱلْعِلْمِ بِٱللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَنْفِيهِ ٱلزِّنَا وَٱلْمَعَاصِي وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ نَفْيَ ٱلْإِيمَانِ (١) لِكَوْنِ ٱلزِّنَا مُبْتَعِدًا عَنِ ٱللهِ تَعَالَى مُوجِبًا لِلْمَقْتِ كَمَا إِذَا قَالَ ٱلطَّبِيبُ هٰذَا سُمٌّ فَلَا تَتَنَاوَلْهُ فَإِذَا تَنَاوَلَهُ يُقَالُ تَنَاوَلَ وَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ لَا بِمَعْنَى أَنَّهُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِوُجُودِ ٱلطَّبِيبِ وَكَوْنِهِ طَبِيبًا وَغَيْرُ مُصَدِّقٍ بِهِ بَلِ ٱلْمُرَادُ أَنَّهُ مُصَدِّقٌ أَنَّهُ سُمٌّ مُهْلِكٌ فَإِنَّ ٱلْعَالِمَ بِٱلسُّمِّ لَا يَتَنَاوَلُهُ أَصْلًا فَٱلْعَاصِي بِٱلضَّرُورَةِ نَاقِصُ ٱلْإِيمَانِ. فَٱلْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ كَٱلْمَأْكُولَاتِ ٱلْمُضِرَّةِ لِلْأَبْدَانِ فَلَا تَزَالُ تَجْتَمِعُ فِي ٱلْبَاطِنِ حَتَّى تُغَيِّرَ مِزَاجَ ٱلْأَخْلَاطِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهَا إِلَى أَنْ يَفْسُدَ ٱلْمِزَاجُ فَيَمْرَضَ دَفْعَةً ثُمَّ يَمُوتُ دَفْعَةً فَكَذٰلِكَ ٱلْمَعَاصِي فَإِذَا كَانَ ٱلْخَائِفُ مِنَ ٱلْهَلَاكِ فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلْمُنْقَضِيَةِ يَجِبُ عَلَيْهِ تَرْكُ ٱلسُّمُومِ وَمَا يَضُرُّهُ مِنَ ٱلْمَأْكُولَاتِ فِي كُلِّ حَالٍ وَعَلَى ٱلْفَوْرِ

(١) وَأَمَّا ٱلَّذِي يَرْتَابُ فَإِنْ أَكَلَ يُدَانُ لِأَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ. وَكُلُّ مَا لَيْسَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ فَهُوَ خَطِيَّةٌ – رومية ١٤: ٢٣

فَالخَائِفُ مِنْ هَلاَكِ ٱلأَبَدِ أَوْلَى يَجِبُ عَلَيهِ ذٰلِكَ وَإِذَا
كَانَ مُتَنَاوِلُ ٱلسُّمِّ إِذَا نَدِمَ يَجِبُ عَلَيهِ أَنْ يَتَقَيَّأَ وَيَرْجِعَ
عَنْ تَنَاوُلِهِ بِإِبْطَالِهِ وَإِخْرَاجِهِ عَنِ ٱلمَعِدَةِ عَلَى سَبِيلِ
ٱلفَوْرِ وَٱلمُبَادَرَةِ تَلاَفِيًا لِبَدَنِهِ ٱلمُشْرِفِ عَلَى هَلاَكٍ لاَ
يَفُوتُ عَلَيهِ إِلاَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلفَانِيَةُ فَمُتَنَاوِلُ سُمُومِ ٱلدِّينِ
وَهِيَ ٱلذُّنُوبُ أَوْلَى بِأَنْ يَجِبَ عَلَيهِ ٱلرُّجُوعُ عَنهَا بِٱلتَّدَارُكِ
ٱلمُمْكِنِ مَا دَامَ يَبْقَى لِلتَّدَارُكِ مُهْلَةٌ وَهُوَ ٱلعُمْرُ فَإِنَّ
ٱلمَخُوفَ مِنْ هٰذَا ٱلسُّمِّ فَوَاتُ ٱلآخِرَةِ ٱلبَاقِيَةِ ٱلَّتِي فِيهَا
ٱلنَّعِيمُ ٱلمُقِيمُ وَٱلمُلْكُ ٱلعَظِيمُ وَفِي فَوَاتِهَا نَارُ ٱلجَحِيمِ
وَٱلعَذَابُ ٱلمُقِيمُ ٱلَّذِي تَتَصَرَّمُ أَضْعَافُ أَعْمَارِ ٱلدُّنْيَا
دُونَ عُشْرِ عُشَيْرِ مُدَّتِهِ إِذْ لَيْسَ لِمُدَّتِهِ آخِرٌ ٱلبَتَّةَ
فَٱلبِدَارَ ٱلبِدَارَ إِلَى ٱلتَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ تَعْمَلَ سُمُومُ ٱلذُّنُوبِ
بِرُوحِ ٱلإِيمَانِ عَمَلاً يُجَاوِزُ ٱلأَمْرُ فِيهِ ٱلأَطِبَّاءَ وَٱخْتِيَارَهُمْ
وَلاَ يَنْفَعُ[1] بَعْدَهُمُ ٱلاحْتِمَاءُ فَلاَ يَنْجَعُ بَعْدَ ذٰلِكَ نُصْحُ
ٱلنَّاصِحِينَ وَوَعْظُ ٱلوَاعِظِينَ وَتَحِقُّ ٱلكَلِمَةُ عَلَيهِ بِأَنَّهُ
مِنَ ٱلهَالِكِينَ

(١) فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَيْضًا بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرِثَ ٱلبَرَكَةَ رُفِضَ إِذْ لَمْ يَجِدْ لِلتَّوْبَةِ مَكَانًا مَعَ أَنَّهُ طَلَبَهَا بِدُمُوعٍ.
عبرانيين ١٢: ١٧

وُجُوبُ ٱلتَّوْبَةِ عَامٌّ فِي ٱلْأَشْخَاصِ وَٱلْأَحْوَالِ فَلَا يَنْفَكُّ عَنْهُ أَحَدٌ ٱلْبَتَّةَ

إِعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ ٱلْكِتَابِ قَدْ دَلَّ عَلَى هٰذَا إِذْ قَالَ تَعَالَى (وَتُوبُوا إِلَى ٱللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فَعَمَّمَ ٱلْخِطَابَ. وَنُورُ ٱلْبَصِيرَةِ أَيْضًا يُرْشِدُ إِلَيْهِ إِذْ مَعْنَى ٱلتَّوْبَةِ ٱلرُّجُوعُ [1] عَنِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُبْعِدِ عَنِ ٱللهِ ٱلْمُقَرِّبِ إِلَى ٱلشَّيْطَانِ. وَلَا يُتَصَوَّرُ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ عَاقِلٍ وَلَا تَكْمُلُ غَرِيزَةُ ٱلْعَقْلِ إِلَّا بَعْدَ كَمَالِ غَرِيزَةِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْغَضَبِ وَسَائِرِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمَذْمُومَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَسَائِلُ ٱلشَّيْطَانِ إِلَى إِغْوَاءِ ٱلْإِنْسَانِ إِذْ كَمَالُ ٱلْعَقْلِ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ مُقَارَبَةِ ٱلْأَرْبَعِينَ وَأَصْلُهُ يَتِمُّ عِنْدَ مُرَاهَقَةِ ٱلْبُلُوغِ وَمَبَادِئُهُ تَظْهَرُ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ وَٱلشَّهَوَاتُ جُنُودُ ٱلشَّيْطَانِ وَٱلْعُقُولُ جُنُودُ ٱلْمَلَائِكَةِ. فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَامَ ٱلْقِتَالُ [2]

(١) إِرْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمْ ٱلرَّدِيئَةِ وَٱحْفَظُوا وَصَايَايَ وَفَرَائِضِي حَسَبَ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلَّتِي أَوْصَيْتُ بِهَا آبَاءَكُمْ. ٢ مل ١٧: ١٣

(٢) وَإِنَّمَا أَقُولُ ٱسْلُكُوا بِٱلرُّوحِ فَلَا

بَيْنَهُمَا بِٱلضَّرُورَةِ إِذْ لَا يَثْبُتُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ لِأَنَّهُمَا ضِدَّانِ . فَٱلتَّطَارُدُ بَيْنَهُمَا كَٱلتَّطَارُدِ بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلنُّورِ وَٱلظُّلْمَةِ وَمَهْمَا غَلَبَ أَحَدُهُمَا أَزْعَجَ ٱلْآخَرَ بِٱلضَّرُورَةِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلشَّهَوَاتُ تَكْمُلُ فِي ٱلصِّبَا وَٱلشَّبَابِ قَبْلَ تَمَامِ ٱلْعَقْلِ فَقَدْ سَبَقَ جُنْدُ ٱلشَّيْطَانِ وَٱسْتَوْلَى عَلَى ٱلْمَكَانِ وَوَقَعَ لِلْقَلْبِ بِهِ أُنْسٌ وَإِلْفٌ لَا مَحَالَةَ مُقْتَضَيَاتُ ٱلشَّهَوَاتِ بِٱلْعَادَةِ وَغَلَبَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ وَيَعْسُرُ عَلَيْهِ ٱلنُّزُوعُ عَنْهُ ثُمَّ يَلُوحُ ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي هُوَ حِزْبُ ٱللّٰهِ وَجُنْدُهُ وَمُنْقِذُ أَوْلِيَائِهِ مِنْ أَيْدِي أَعْدَائِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ فَإِنْ لَمْ يَقْوَ وَلَمْ يَكْمُلْ سُلِّمَتْ مَمْلَكَةُ ٱلْقَلْبِ لِلشَّيْطَانِ وَأَنْجَزَ ٱللَّعِينُ مَوْعُودَهُ حَيْثُ قَالَ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا . وَإِنْ كَمُلَ ٱلْعَقْلُ وَقَوِيَ كَانَ أَوَّلُ شُغْلِهِ قَمْعَ جُنُودِ ٱلشَّيْطَانِ بِكَسْرِ ٱلشَّهَوَاتِ وَمُفَارَقَةِ ٱلْعَادَاتِ وَرَدِّ ٱلطَّبْعِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْقَهْرِ إِلَى ٱلْعِبَادَاتِ . وَلَا مَعْنَى لِلتَّوْبَةِ إِلَّا هٰذَا وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ (١) عَنْ طَرِيقٍ دَلِيلُهُ ٱلشَّهْوَةُ وَخَفِيرُهُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَى طَرِيقِ

تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ ٱلْجَسَدِ . لِأَنَّ ٱلْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ ٱلرُّوحِ وَٱلرُّوحَ ضِدَّ ٱلْجَسَدِ وَهٰذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا ٱلْآخَرَ حَتَّى تَفْعَلُونَ مَا لَا تُرِيدُونَ = غلاطية ٥: ١٦ و١٧

(١) إِرْجِعُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَنْ طَرِيقِهِ ٱلرَّدِيءِ وَعَنْ شَرِّ

اللهِ تعالى . وليس في الوجود آدميٌّ إلا وشهوته سابقة
على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على
غريزته التي هي عدة الملائكة فكان الرجوع عما
سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل
إنسان نبيا كان أم غبيا فلا تظنن أن هذه الضرورة
أختصت بآدم عليه السلام بل هو حكم أزلي مكتوب
على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه . فالتوبة إذا
فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغني عنها
أحد من البشر كما لم يستغن آدم

وأما بيان وجوبها على (١) الدوام وفي كل حال
فهو إن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل
عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا
أنبياء وذنوبهم وبكائهم على خطاياهم فإن خلا في بعض
الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم
بالذنوب بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم
فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة

أعمالكم واسكنوا في الأرض التي أعطاكم الرب إلهكم إياها من الأزل وإلى الأبد – أرميا ٥:٢٥

قلباً نقياً أخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي – مزمور ٥١ : ١٠

(١) وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء . بل قرع على صدره قائلا اللهم ارحمني أنا الخاطئ – لو ١٣:١٨

ٱلْمُذْهِلَةِ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ فَإِنْ خَلَا عَنْهُ فَلَا يَخْلُو عَنْ غَفْلَةٍ وَقُصُورٍ فِي ٱلْعِلْمِ بِٱللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَكُلُّ ذٰلِكَ نَقْصٌ وَلَهُ أَسْبَابٌ وَتَرْكُ أَسْبَابِهِ بِٱلتَّشَاغُلِ بِأَضْدَادِهَا رُجُوعٌ عَنْ طَرِيقٍ إِلَى ضِدِّهِ وَٱلْمُرَادُ بِٱلتَّوْبَةِ ٱلرُّجُوعُ وَلَا يُتَصَوَّرُ ٱلْخُلُوُّ فِي حَقِّ ٱلْآدَمِيِّ عَنْ هٰذَا ٱلنَّقْصِ وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُونَ فِي ٱلْمَقَادِيرِ فَأَمَّا ٱلْأَصْلُ فَلَا بُدَّ مِنْهُ وَلِهٰذَا قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ وَٱللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً) وَلِذٰلِكَ أَكْرَمَهُ ٱللهُ تَعَالَى بِأَنْ قَالَ (لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فَإِذَا كَانَ هٰذَا حَالَهُ فَكَيْفَ حَالُ غَيْرِهِ

وَٱلْمُرَادُ بِقَوْلِكَ ٱلتَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَخْلُو فِي مَبْدَإِ (١) خِلْقَتِهِ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ أَصْلًا وَلَيْسَ مَعْنَى ٱلتَّوْبَةِ تَرْكَهَا فَقَطْ بَلْ تَمَامُ ٱلتَّوْبَةِ بِتَدَارُكِ مَا مَضَى (٢) وَكُلُّ شَهْوَةٍ أَتْبَعَهَا ٱلْإِنْسَانُ ٱرْتَفَعَ مِنْهَا ظُلْمَةٌ إِلَى قَلْبِهِ كَمَا يَرْتَفِعُ عَنْ نَفَسِ ٱلْإِنْسَانِ ظُلْمَةٌ إِلَى وَجْهِ ٱلْمِرْآةِ ٱلصَّقِيلَةِ فَإِنْ تَرَاكَمَتْ

(١) هٰنَذَا بِٱلْإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِٱلْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي مزمور ٥١ : ٥

(٢) فَقَالَ لَهُمْ بُطْرُسُ تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى ٱسْمِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ ٱلْخَطَايَا فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ ٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ اع ٢ : ٣٨

ظُلْمَةُ ٱلشَّهَوَاتِ صَارَ رَيْنًا (صَدًا) كَمَا بَصِيرُ بُخَارُ ٱلنَّفَسِ فِي وَجْهِ ٱلْمِرْآةِ عِنْدَ تَرَاكُمِهِ خُبْثًا كَمَا قَالَ تَعَالَى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) فَإِذَا تَرَاكَمَ ٱلرَّيْنُ صَارَ طَبْعًا يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ كَٱلْخُبْثِ عَلَى وَجْهِ ٱلْمِرْآةِ إِذَا تَرَاكَمَ وَطَالَ زَمَانُهُ وَغَاصَ فِي جِرْمِ[1] ٱلْحَدِيدِ وَأَفْسَدَهُ وَصَارَ لَا يَقْبَلُ ٱلصَّقْلَ بَعْدَهُ وَصَارَ كَٱلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلْخُبْثِ وَلَا يَكْفِي فِي تَدَارُكِ ٱلشَّهَوَاتِ تَرْكُهَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَحْوِ تِلْكَ ٱلْأَرْيَانِ ٱلَّتِي ٱنْطَبَعَتْ فِي ٱلْقَلْبِ كَمَا لَا يَكْفِي فِي ظُهُورِ ٱلصُّوَرِ فِي ٱلْمِرْآةِ قَطْعُ ٱلْأَنْفَاسِ وَٱلْبُخَارَاتِ ٱلْمُسَوِّدَةِ لِوَجْهِهَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ مَا لَمْ يَشْتَغِلْ بِمَحْوِ مَا ٱنْطَبَعَ فِيهَا مِنَ ٱلْأَرْيَانِ وَكَمَا يَرْتَفِعُ إِلَى ٱلْقَلْبِ ظُلْمَةٌ مِنَ ٱلْمَعَاصِي وَٱلشَّهَوَاتِ فَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ نُورٌ مِنَ ٱلطَّاعَاتِ وَتَرْكِ ٱلشَّهَوَاتِ فَتَنْمَحِي ظُلْمَةُ ٱلْمَعْصِيَةِ بِنُورِ ٱلطَّاعَةِ وَإِلَيْهِ ٱلْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (أَتْبِعِ ٱلسَّيِّئَةَ ٱلْحَسَنَةَ تَمْحُهَا) فَإِذًا لَا يَسْتَغْنِي ٱلْعَبْدُ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ عَنْ مَحْوِ آثَارِ ٱلسَّيِّئَاتِ عَنْ قَلْبِهِ بِمُبَاشَرَةِ[2]

(١) لَمَّا رَأَى يَهُوذَا ٱلَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ نَدِمَ وَرَدَّ ٱلثَّلَاثِينَ مِنَ ٱلْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلشُّيُوخِ . قَائِلًا قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا فَقَالُوا مَاذَا عَلَيْنَا أَنْتَ أَبْصِرْ فَطَرَحَ ٱلْفِضَّةَ فِي ٱلْهَيْكَلِ وَٱنْصَرَفَ ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ مت ٢٧ : ٣

(٢) فَٱصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِٱلتَّوْبَةِ مت ٣ : ٨

حَسَنَاتٍ تُضَادُّ آثَارُهَا آثَارَ تِلْكَ ٱلسَّيِّئَاتِ. فَإِيَّاكَ مَرَّةً وَاحِدَةً أَنْ تَغُرَّكَ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَلْفَ أَلْفَ مَرَّةٍ أَنْ يَغُرَّكَ بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ فَهٰذِهِ أَسْرَارٌ مَنِ ٱسْتَنْشَقَ مَبَادِئَ رَوَائِحِهَا عَلِمَ أَنَّ لُزُومَ ٱلتَّوْبَةِ ٱلنَّصُوحِ مُلَازِمٌ لِلْعَبْدِ ٱلسَّالِكِ فِي طَرِيقِ ٱللهِ تَعَالَى فِي كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ[١] وَلَوْ عُمِّرَ عُمْرَ نُوحٍ وَإِنَّ ذٰلِكَ وَاجِبٌ عَلَى ٱلْفَوْرِ مِنْ غَيْرِ مُهْلَكٍ

وَلَقَدْ صَدَقَ أَبُو سُلَيْمَانَ ٱلدَّارَانِيُّ حَيْثُ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْكِ ٱلْعَاقِلُ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا عَلَى تَفْوِيتِ مَا مَضَى مِنْهُ فِي غَيْرِ ٱلطَّاعَةِ لَكَانَ خَلِيقًا أَنْ يُحْزِنَهُ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْمَمَاتِ فَكَيْفَ مَنْ يَسْتَقْبِلُ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ بِمِثْلِ مَا مَضَى مِنْ جَهْلِهِ. وَإِنَّمَا قَالَ هٰذَا لِأَنَّ ٱلْعَاقِلَ إِذَا مَلَكَ جَوْهَرَةً نَفِيسَةً وَضَاعَتْ مِنْهُ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ بَكَى عَلَيْهَا لَا مَحَالَةَ وَإِنْ ضَاعَتْ مِنْهُ وَصَارَ ضَيَاعُهَا سَبَبَ هَلَاكِهِ كَانَ بُكَاؤُهُ مِنْهَا أَشَدَّ وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ بَلْ كُلُّ نَفَسٍ[٢] جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا خَلَفَ لَهَا وَلَا بَدَلَ مِنْهَا فَإِنَّهَا صَالِحَةٌ

(١) كُنْ أَمِينًا إِلَى ٱلْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ ٱلْحَيَاةِ رؤيا ٢ : ١٠

(٢) لِأَنَّهُ مَاذَا يَنْفَعُ ٱلْإِنْسَانَ لَوْ رَبِحَ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ

لِأَنْ تُوصِلَكَ إِلَى سَعَادَةِ ٱلْأَبَدِ وَتُنْقِذَكَ مِنْ شَقَاوَةِ ٱلْأَبَدِ وَأَيُّ جَوْهَرٍ أَنْفَسُ مِنْ هٰذَا فَإِذَا ضَيَّعْتَهَا فِي ٱلْغَفْلَةِ فَقَدْ خَسِرْتَ خُسْرَانًا مُبِينًا فَإِنْ كُنْتَ لَا تَبْكِي عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُصِيبَةِ فَذٰلِكَ لِجَهْلِكَ وَمُصِيبَتُكَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ. وَنَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ وَٱلنَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا ٱنْتَبَهُوا فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَنْكَشِفُ لِكُلِّ مُفْلِسٍ إِفْلَاسُهُ وَلِكُلِّ مُصَابٍ مُصِيبَتُهُ. وَقَدْ رَفَعَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلتَّدَارُكِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّي لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ(١) ٱللّٰهُ نَفْسًا إِذْ جَاءَ أَجَلُهَا) وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى ٱلْآيَةِ إِنَّهُ يَقُولُ حَالَتَئِذٍ يَا مَلَكَ ٱلْمَوْتِ أَخِّرْهُ لِي يَوْمًا أَتُوبُ فِيهِ إِلَى رَبِّي فَأَتَزَوَّدُ صَالِحًا لِنَفْسِي فَيَقُولُ فَنِيَتِ ٱلْأَيَّامُ فَلَا يَوْمٌ فَيَقُولُ أَخِّرْنِي سَاعَةً فَيَقُولُ فَنِيَتِ ٱلسَّاعَاتُ فَلَا سَاعَةَ فَيُغْلَقُ عَلَيْهِ بَابُ ٱلتَّوْبَةِ فَيَتَغَرْغَرُ بِرُوحِهِ وَتَزْهَقُ نَفْسُهُ وَلِمِثْلِ هٰذَا يُقَالُ (وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ

نَفْسَهُ. أَوْ مَاذَا يُعْطِي ٱلْإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ مت ١٦: ٢٦

(١) إِنْ كَانَتْ أَيَّامُهُ مَحْدُودَةً وَعَدَدُ أَشْهُرِهِ عِنْدَكَ وَقَدْ عَيَّنْتَ أَجَلَهُ فَلَا يَتَجَاوَزُهُ فَأَقْصِرْ عَنْهُ لِيَسْتَرِحْ إِلَى أَنْ يُسَرَّ كَٱلْأَجِيرِ بِٱنْتِهَاءِ يَوْمِهِ ايوب ١٤: ٥ و٦

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْآنَ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللّٰهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) مَعْنَاهُ عَنْ قُرْبِ عَهْدٍ بِٱلْخَطِيئَةِ بِأَنْ يَتَنَدَّمَ عَلَيْهَا وَيَمْحُو أَثَرَهَا بِحَسَنَةٍ يُرْدِفُهَا بِهَا قَبْلَ أَنْ يَتَرَاكَمَ ٱلرَّيْنُ عَلَى ٱلْقَلْبِ فَلَا يَقْبَلُ ٱلْمَحْوَ وَلِذٰلِكَ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتْبِعِ ٱلسَّيِّئَةَ[1] ٱلْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَمَنْ تَرَكَ ٱلْمُبَادَرَةَ إِلَى ٱلتَّوْبَةِ بِٱلتَّسْوِيفِ كَانَ بَيْنَ خَطَرَيْنِ عَظِيمَيْنِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ تَتَرَاكَمَ ٱلظُّلْمَةُ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَعَاصِي حَتَّى رَيْنًا وَطَبْعًا فَلَا يَقْبَلُ ٱلْمَحْوَ (ٱلثَّانِي) أَنْ يُعَاجِلَهُ ٱلْمَرَضُ أَوِ ٱلْمَوْتُ فَلَا يَجِدُ مُهْلَةً لِلِاشْتِغَالِ بِٱلْمَحْوِ فَيَأْتِي ٱللّٰهَ بِقَلْبٍ غَيْرِ سَلِيمٍ وَلَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

(١) لَا يَغْلِبَنَّكَ ٱلشَّرُّ بَلِ ٱغْلِبِ ٱلشَّرَّ بِٱلْخَيْرِ
رومية ١٢ : ٢١

بَيَانُ أَنَّ ٱلتَّوْبَةَ ٱلصَّحِيحَةَ مَقْبُولَةٌ

إِعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا فَهِمْتَ مَعْنَى ٱلْقُبُولِ لَمْ تَشُكَّ فِي أَنَّ كُلَّ تَوْبَةٍ صَحِيحَةٍ فَهِيَ مَقْبُولَةٌ فَٱلنَّاظِرُونَ بِنُورِ ٱلْبَصَائِرِ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ قَلْبٍ سَلِيمٍ مَقْبُولٌ عِنْدَ ٱللهِ وَمُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِهِ[١] ٱلْبَاقِيَةِ إِلَى وَجْهِ ٱللهِ تَعَالَى وَعَلِمُوا أَنَّ ٱلْقَلْبَ خُلِقَ سَلِيمًا فِي ٱلْأَصْلِ وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا تَفُوتُهُ ٱلسَّلَامَةُ بِكُدُورَةٍ تَرْهَقُ وَجْهَهُ مِنْ ظُلْمَةِ ٱلذُّنُوبِ وَعَلِمُوا أَنَّ نَارَ ٱلنَّدَمِ تُحْرِقُ ٱلْغَيْرَةَ وَأَنَّ نُورَ ٱلْحَسَنَةِ يَمْحُو عَنْ وَجْهِ ٱلْقَلْبِ ظُلْمَةَ ٱلسَّيِّئَةِ وَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لِظَلَامِ[٢] ٱلْمَعَاصِي مَعْ نُورِ ٱلْحَسَنَاتِ كَمَا لَا طَاقَةَ لِظَلَامِ ٱللَّيْلِ مَعْ نُورِ ٱلنَّهَارِ بَلْ كَمَا لَا طَاقَةَ لِلْوَسَخِ مَعَ ٱلصَّابُونِ. وَكَمَا أَنَّ ٱلثَّوْبَ ٱلْوَسِخَ لَا يَقْبَلُهُ ٱلْمَلِكُ لِأَنْ يَكُونَ لِبَاسَهُ فَٱلْقَلْبُ ٱلْمُظْلِمُ لَا يَقْبَلُهُ ٱللهُ تَعَالَى لِأَنْ يَكُونَ فِي جِوَارِهِ وَكَمَا أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلثَّوْبِ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلْخَسِيسَةِ يُوَسِّخُ

(١) طُوبَى لِلْأَنْقِيَاءِ ٱلْقَلْبِ لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ ٱللهَ متى ٥: ٤

(٢) لَا تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعْ غَيْرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. لِأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَٱلْإِثْمِ. وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ ٱلظُّلْمَةِ ٢ كو ٦: ١٤

ٱلثَّوْبَ وَغَسْلُهُ بِٱلصَّابُونِ وَٱلْمَاءِ ٱلْحَارِّ يُنَظِّفُهُ لَا مَحَالَةَ فَٱسْتِعْمَالُ ٱلْقَلْبِ فِي ٱلشَّهَوَاتِ يُوَسِّخُ ٱلْقَلْبَ وَغَسْلُهُ بِمَاءِ[1] ٱلدُّمُوعِ وَحُرْقَةِ ٱلنَّدَمِ يُنَظِّفُهُ وَيُطَهِّرُهُ وَيُزَكِّيهِ وَكُلُّ قَلْبٍ زَكِيٍّ طَاهِرٍ فَهُوَ مَقْبُولٌ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلتَّزْكِيَةُ وَٱلتَّطْهِيرُ وَأَمَّا ٱلْقَبُولُ فَمَبْذُولٌ[2] قَدْ سَبَقَ بِهِ ٱلْقَضَاءُ ٱلْأَزَلِيُّ ٱلَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى فَلَاحًا فِي قَوْلِهِ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

فَمَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلتَّوْبَةَ تَصِحُّ وَلَا تُقْبَلُ كَمَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلشَّمْسَ تَطْلُعُ وَٱلظَّلَامَ لَا يَزُولُ وَٱلثَّوْبَ يُغْسَلُ بِٱلصَّابُونِ وَٱلْوَسَخَ لَا يَزُولُ إِلَّا أَنْ يَغُوصَ ٱلْوَسَخُ لِطُولِ تَرَاكُمِهِ فِي تَجَاوِيفِ ٱلثَّوْبِ فَلَا يَقْوَى ٱلصَّابُونُ عَلَى قَلْعِهِ فَمِثْلُ ذٰلِكَ أَنْ تَتَرَاكَمَ ٱلذُّنُوبُ حَتَّى تَصِيرَ طَبْعًا وَرَيْنًا عَلَى ٱلْقَلْبِ فَمِثْلُ هٰذَا ٱلْقَلْبِ لَا يَرْجِعُ وَلَا يَتُوبُ. نَعَمْ قَدْ يَقُولُ بِٱللِّسَانِ تُبْتُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ كَقَوْلِ ٱلْقَصَّارِ بِلِسَانِهِ قَدْ غَسَلْتُ ٱلثَّوْبَ وَذٰلِكَ لَا يُنَظِّفُ ٱلثَّوْبَ أَصْلًا فَمَا لَمْ يُغَيِّرْ صِفَةَ ٱلثَّوْبِ بِٱسْتِعْمَالِ مَا يُضَادُّ ٱلْوَصْفَ ٱلْمُتَمَكِّنَ

(١) ٱلْآنَ أَنَا أَفْرَحُ لَا لِأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ بَلْ لِأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ لِلتَّوْبَةِ. لِأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ ٱللّٰهِ لِكَيْ لَا تَخْسَرُوا مِنَّا فِي شَيْءٍ. لِأَنَّ ٱلْحُزْنَ ٱلَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ ٱللّٰهِ يُنْشِئُ تَوْبَةً لِخَلَاصٍ بِلَا نَدَامَةٍ. وَأَمَّا حُزْنُ ٱلْعَالَمِ فَيُنْشِئُ مَوْتًا ٢ كو ٧: ٩ و ١٠

(٢) مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لَا أُخْرِجْهُ خَارِجًا يوحنا ٦: ٣٧

بِهِ فهذا حال امتناع اصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كافٍ عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والاخبار والآثار (فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به) وقد قال تعالى (وهو الذي[1] يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) وقال تعالى (غافر الذنب وقابل التوبة) واقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلاً للعطش وقال صلوات الله عليه (التائب[2] من الذنب كمن لا ذنب له)

(١) انا انا هو الماحي ذنوبك لاجل نفسي وخطاياك لا اذكرها اش ٤٣: ٢٥

(٢) هلم نتحاجج يقول الرب إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف اش ١: ١٨

تَمَامُ ٱلتَّوْبَةِ وَشُرُوطُهَا وَدَوَامُهَا

ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلتَّوْبَةَ عِبَارَةٌ عَنْ نَدَمٍ يُورِثُ عَزْمًا وَقَصْدًا فَٱلنَّدَمُ هُوَ تَوَجُّعُ ٱلْقَلْبِ عِنْدَ شُعُورِهِ بِفَوَاتِ ٱلْمَحْبُوبِ. وَعَلَامَتُهُ طُولُ ٱلْحَسْرَةِ وَٱلْحَزَنِ وَإِسْكَابُ ٱلدَّمْعِ [1] وَٱلْفِكْرِ. فَمَنِ ٱسْتَشْعَرَ عُقُوبَةً نَازِلَةً بِوَلَدِهِ طَالَ عَلَيْهِ مُصِيبَتُهُ وَبُكَاؤُهُ وَأَيُّ عَزِيزٍ أَعَزُّ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ. وَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَشَدُّ مِنَ ٱلنَّارِ وَأَيُّ سَبَبٍ أَدَلُّ عَلَى نُزُولِ ٱلْعُقُوبَةِ مِنَ ٱلْمَعَاصِي. وَأَيُّ مُخْبِرٍ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَلَوْ حَدَّثَهُ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ يَتَطَبَّبُ أَنَّ مَرَضَ وَلَدِهِ لَا يَبْرَأُ وَأَنَّهُ سَيَمُوتُ مِنْهُ لَطَالَ فِي ٱلْحَالِ حَزَنُهُ. فَلَيْسَ وَلَدُهُ بِأَعَزَّ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا ٱلطَّبِيبُ بِأَعْلَمَ وَلَا أَصْدَقَ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَلَا ٱلْمَوْتُ بِأَشَدَّ مِنَ ٱلنَّارِ. وَلَا ٱلْمَرَضُ بِأَدَلَّ عَلَى ٱلْمَوْتِ مِنَ ٱلْمَعَاصِي عَلَى سَخَطِ ٱللهِ تَعَالَى وَٱلتَّعَرُّضِ بِهَا إِلَى ٱلنَّارِ فَأَلَمُ ٱلنَّدَمِ كُلَّمَا كَانَ

(١) وَلٰكِنْ يَقُولُ ٱلرَّبُّ ٱرْجِعُوا إِلَيَّ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ وَبِٱلصَّوْمِ وَٱلْبُكَاءِ وَٱلنَّوْحِ
يوئيل ٢: ١٢

أَشَدَّ كَانَ تَكْفِيرُ ٱلذُّنُوبِ بِهِ أَرْجَى فَعَلَامَةُ صِحَّةِ ٱلنَّدَمِ رِقَّةُ ٱلْقَلْبِ وَغَزَارَةُ ٱلدَّمْعِ . وَمِنْ عَلَامَتِهِ أَنْ تَتَمَكَّنَ مَرَارَةُ تِلْكَ ٱلذُّنُوبِ فِي قَلْبِهِ بَدَلًا عَنْ حَلَاوَتِهَا فَيَسْتَبْدِلُ بِٱلْمَيْلِ كَرَاهِيَةً (١) وَبِٱلرَّغْبَةِ نَفْرَةً كَمَنْ يَنْفُرُ عَنْ عَسَلٍ فِيهِ سُمٌّ وَلَوْ كَانَ فِي غَايَةِ ٱلْجُوعِ وَٱلشَّهْوَةِ لِلْحَلَاوَةِ فَوِجْدَانُ ٱلتَّائِبِ مَرَارَةَ ٱلذَّنْبِ كَذٰلِكَ يَكُونُ وَذٰلِكَ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ فَذَوْقُهُ ذَوْقُ ٱلْعَسَلِ (٢) وَعَمَلُهُ عَمَلُ ٱلسُّمِّ . وَلَا تَصِحُّ ٱلتَّوْبَةُ وَلَا تَصْدُقُ إِلَّا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْإِيمَانِ وَلَمَّا عَزَّ مِثْلُ هٰذَا ٱلْإِيمَانِ عَزَّتِ ٱلتَّوْبَةُ وَٱلتَّائِبُونَ . فَلَا تَرَى إِلَّا مُعْرِضًا عَنِ ٱللّٰهِ تَعَالَى مُتَهَاوِنًا بِٱلذُّنُوبِ مُصِرًّا عَلَيْهَا . فَهٰذَا شَرْطُ تَمَامِ ٱلنَّدَمِ وَيَنْبَغِي أَنْ يَدُومَ إِلَى ٱلْمَوْتِ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَجِدَ هٰذِهِ ٱلْمَرَارَةَ فِي جَمِيعِ ٱلذُّنُوبِ

وَأَمَّا ٱلْقَصْدُ ٱلَّذِي يَنْبَعِثُ مِنْهُ وَهُوَ إِرَادَةُ ٱلتَّدَارُكِ فَلَهُ تَعَلُّقٌ بِٱلْحَالِ (٣) وَهُوَ يُوجِبُ تَرْكَ كُلِّ مَحْظُورٍ هُوَ مُلَابِسٌ لَهُ وَأَدَاءَ كُلِّ فَرْضٍ هُوَ مُتَوَجِّهٌ عَلَيْهِ فِي ٱلْحَالِ وَلَهُ تَعَلُّقٌ بِٱلْمَاضِي (٤) وَهُوَ تَدَارُكُ مَا فَرَطَ وَبِٱلْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ دَوَامُ

(١) مَخَافَةُ ٱلرَّبِّ بُغْضُ ٱلشَّرِّ. ٱلْكِبْرِيَاءَ وَٱلتَّعَظُّمَ وَطَرِيقَ ٱلشَّرِّ وَفَمَ ٱلْأَكَاذِيبِ أَبْغَضْتُ امثال ٨:١٣

(٢) لِأَنَّ شَفَتَيِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ تَقْطُرَانِ عَسَلًا وَحَنَكُهَا أَنْعَمُ مِنَ ٱلزَّيْتِ لٰكِنَّ عَاقِبَتَهَا مُرَّةٌ كَٱلْأَفْسَنْتِينِ حَادَّةٌ كَسَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ ام ٥:٣و٤

(٣) حِدْ عَنِ ٱلشَّرِّ وَٱصْنَعِ ٱلْخَيْرَ. ٱطْلُبِ ٱلسَّلَامَةَ وَٱسْعَ وَرَاءَهَا مز ٣٤:١٤

(٤) اُذْكُرْ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتَ وَتُبْ رؤ ٢:٥

ٱلطَّاعَةِ وَدَوَامُ تَرْكِ ٱلْمَعْصِيَةِ إِلَى ٱلْمَوْتِ

وَمِنْ أَهَمِّ مَا يَجِبُ تَدَارُكُ ٱلْحُقُوقِ ٱلْمَالِيَّةِ فَمَنْ تَنَاوَلَ مَالاً بِغَصْبٍ أَوْ خِيَانَةٍ أَوْ غَبْنٍ فِي مُعَامَلَةٍ بِنَوْعِ تَلْبِيسٍ كَتَرْوِيجِ زَائِفٍ أَوْ سَتْرِ عَيْبٍ مِنَ ٱلْمَبِيعِ أَوْ نَقْصِ أُجْرَةِ أَجِيرٍ أَوْ أَكْلِ أُجْرَتِهِ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ يُفَتِّشَ عَنْهُمْ لِيَسْتَحِلَّهُمْ أَوْ لِيُؤَدِّيَ حُقُوقَهُمْ[٢] أَوْ لِوَرَثَتِهِمْ وَلْيُحَاسِبْ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْحَبَّاتِ وَٱلدَّوَانِقِ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ فِي ٱلْقِيَامَةِ. وَيُنَاقِشْ قَبْلَ أَنْ يُنَاقَشَ. فَمَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي ٱلدُّنْيَا طَالَ فِي ٱلْآخِرَةِ حِسَابُهُ فَإِنْ عَجِزَ فَلَا يَبْقَى لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا أَنْ يُكْثِرَ مِنَ ٱلْحَسَنَاتِ بِقَدْرِ كَثْرَةِ مَظَالِمِهِ فَهٰذَا طَرِيقُ كُلِّ تَائِبٍ فِي رَدِّ ٱلْمَظَالِمِ ٱلثَّابِتَةِ فِي ذِمَّتِهِ. أَمَّا أَمْوَالُهُ ٱلْحَاضِرَةُ فَلْيَرُدَّ إِلَى ٱلْمَالِكِ مَا يَعْرِفُ لَهُ مَالِكًا مُعَيَّنًا. وَمَا لَا يَعْرِفُ مَالِكًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ. فَإِنِ ٱخْتَلَطَ ٱلْحَلَالُ بِٱلْحَرَامِ[١] فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ ٱلْحَرَامِ بِٱلِٱجْتِهَادِ وَيَتَصَدَّقَ بِذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارِ

وَأَمَّا ٱلْجِنَايَةُ عَلَى ٱلْقُلُوبِ بِمُشَافَهَةِ ٱلنَّاسِ بِمَا

(١) فَوَقَفَ زَكَّا وَقَالَ لِلرَّبِّ هَا أَنَا يَا رَبُّ أُعْطِي نِصْفَ أَمْوَالِي لِلْمَسَاكِينِ. وَإِنْ كُنْتُ قَدْ وَشَيْتُ بِأَحَدٍ أَرُدُّ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ لوقا ١٩: ٨

(٢) فِي وَسَطِكَ حَرَامٌ يَا إِسْرَائِيلُ فَلَا تَتَمَكَّنُ لِلثُّبُوتِ أَمَامَ أَعْدَائِكَ حَتَّى تَنْزِعُوا ٱلْحَرَامَ مِنْ وَسَطِكُمْ يشوع ٧: ١٣

يسوءهم أو يعيبهم في الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله فمن وجده [٢] وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة

دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

إعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء. وكل داء حصل من سبب فدواؤه إبطاله. ولا يبطل الشيء إلا بضده. ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة. ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على

(٢) وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدك كما إن سمع منك فقد ربحت أخاك متى ١٨: ١٥

قطع الاسباب المحركة للشهوة

وأما الانواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب فهي اربعة انواع

(الاول) أن يذكر[1] ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذا ما ورد من الاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين (الثاني) حكايات الانبياء[2] والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل احوال آدم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ونحوها فإنه لم يرد بها القرآن والاخبار والكتب المقدسة ورود الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع فهذا نافع في تحريك دواعي التوبة (الثالث) أن يقرر

(١) فتح كلامك ينير يعقل الجهال مزمور ١١٩: ١٣٠

(٢) اذكروا امرأة لوط لوقا ١٧: ٣٢ او أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم أتظنون أن هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين في اورشليم لو ١٣: ٤

عِنْدَهُمْ أَنَّ تَعْجِيلَ ٱلْعُقُوبَةِ فِي ٱلدُّنْيَا مُتَوَقِّعٌ عَلَى ٱلذُّنُوبِ (٢) وَأَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُ ٱلْعَبْدَ مِنَ ٱلْمَصَائِبِ فَهُوَ بِسَبَبِ جِنَايَاتِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَخُوفَ بِهِ وَفِي خَبَرٍ (إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُحْرَمُ ٱلرِّزْقَ بِٱلذَّنْبِ يُصِيبُهُ) وَقَالَ بَعْضُ ٱلسَّلَفِ. لَيْسَتِ ٱللَّعْنَةُ سَوَادًا فِي ٱلْوَجْهِ وَنُقْصَانًا فِي ٱلْمَالِ إِنَّمَا ٱللَّعْنَةُ أَنْ لَا تَخْرُجَ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَقَعْتَ فِي مِثْلِهِ أَوْ شَرٍّ مِنْهُ. وَهُوَ كَمَا قَالَ لِأَنَّ ٱللَّعْنَةَ هِيَ ٱلطَّرْدُ وَٱلْإِبْعَادُ فَإِذَا لَمْ يُوَفَّقْ لِلْخَيْرِ وَيُسِّرَ لَهُ ٱلشَّرُّ فَقَدْ أُبْعِدَ. وَٱلْحِرْمَانُ عَنْ رِزْقِ ٱلتَّوْفِيقِ أَعْظَمُ حِرْمَانٍ. وَكُلُّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى ذَنْبٍ آخَرَ وَيَتَضَاعَفُ يُحْرَمُ ٱلْعَبْدُ بِهِ عَنْ رِزْقِهِ ٱلنَّافِعِ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمُنْكِرِينَ لِلذُّنُوبِ وَمِنْ مُجَالَسَةِ ٱلصَّالِحِينَ بَلْ يَمْقُتُهُ ٱللهُ تَعَالَى لِيَمْقُتَهُ ٱلصَّالِحُونَ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْأَخْبَارُ كَثِيرَةٌ فِي آفَاتِ ٱلذُّنُوبِ فِي ٱلدُّنْيَا فَمَنِ ٱبْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْهَا كَانَ عُقُوبَةً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ كَانَتِ ٱسْتِدْرَاجًا لَهُ وَيُحْرَمُ جَمِيلَ ٱلشُّكْرِ حَتَّى يُعَاقَبَ عَلَى كُفْرَانِهِ وَأَمَّا ٱلْمُطِيعُ فَمِنْ بَرَكَةِ طَاعَتِهِ أَنْ تَكُونَ كُلُّ

(٢) كَمَا فَعَلْتَ يُفْعَلُ بِكَ. عَمَلُكَ يَرْتَدُّ عَلَى رَأْسِكَ

عو بدبا ١٥

نِعْمَةٍ فِي حَقِّهِ جَزَاءً عَلَى طَاعَتِهِ . وَيُوَفَّقُ لِشُكْرِهَا وَكُلُّ بَلِيَّةٍ كَفَّارَةٌ لِذُنُوبِهِ وَزِيَادَةٌ فِي دَرَجَاتِهِ (ٱلرَّابِعُ) ذِكْرُ مَا وَرَدَ مِنَ ٱلْعُقُوبَاتِ عَلَى آحَادِ ٱلذُّنُوبِ كَٱلْخَمْرِ (١) وَٱلزِّنَا وَٱلسَّرِقَةِ (٢) وَغَيْرِ ذٰلِكَ

عَقْدُ ٱلْإِصْرَارِ وَعِلَاجُهُ

(ٱلْأَوَّلُ) يَعْتَقِدُ ٱلْبَعْضُ فِي تَأَخُّرِ ٱلْعِقَابِ وَعِلَاجُهُ أَنْ يَعْرِفَ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ وَأَنَّ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبٌ وَأَنَّ ٱلْمَوْتَ (٣) أَقْرَبُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ فَمَا يُدْرِيهِ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ

(ٱلثَّانِي) تَأْجِيلُ ٱلتَّوْبَةِ . وَعِلَاجُهُ بِٱلْفِكْرِ فَإِنَّ أَكْثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ ٱلنَّارِ مِنَ ٱلتَّسْوِيفِ لِأَنَّ ٱلْمُسَوِّفَ (٤) يَبْنِي ٱلْأَمْرَ عَلَى مَا لَيْسَ إِلَيْهِ وَهُوَ ٱلْبَقَاءُ فَلَعَلَّهُ لَا يَبْقَى وَإِنْ بَقِيَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلتَّرْكِ غَدًا كَمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ عَجَزَ فِي ٱلْحَالِ إِلَّا لِغَلَبَةِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلشَّهْوَةُ لَيْسَتْ تُفَارِقُهُ غَدًا بَلْ تَتَضَاعَفُ إِذْ تَتَأَكَّدُ

---

(١) لِمَنِ ٱلْوَيْلُ لِمَنِ ٱلشَّقَاوَةُ لِمَنِ ٱلْمُخَاصَمَاتُ لِمَنِ ٱلْكَرْبُ لِمَنِ ٱلْجُرُوحُ بِلَا سَبَبٍ لِمَنِ ٱزْمِهْرَارُ ٱلْعَيْنَيْنِ لِلَّذِينَ يُدْمِنُونَ ٱلْخَمْرَ

امثال ٢٣ : ٢٩

(٢) هٰذِهِ هِيَ ٱللَّعْنَةُ ٱلْخَارِجَةُ عَلَى وَجْهِ كُلِّ ٱلْأَرْضِ لِأَنَّ كُلَّ سَارِقٍ يُبَادُ مِنْ هُنَا بِحَسَبِهَا وَكُلُّ حَالِفٍ يُبَادُ مِنْ هُنَاكَ بِحَسَبِهَا

زكريا ٥ : ٣

(٣) لِأَنَّهُ حِينَمَا يَقُولُونَ سَلَامٌ وَأَمَانٌ حِينَئِذٍ يُفَاجِئُهُمْ هَلَاكٌ بَغْتَةً كَٱلْمَخَاضِ لِلْحُبْلَى فَلَا يَنْجُونَ (تسالونيكي الاولى ٥ : ٣)

(٤) إِسْهَرُوا إِذًا

بِالاعْتِيَادِ فَلَيْسَتِ ٱلشَّهْوَةُ ٱلَّتِي أَكَّدَهَا ٱلإِنْسَانُ بِٱلعَادَةِ كَٱلَّتِي لَمْ يُؤَكِّدْهَا وَعَنْ هٰذَا هَلَكَ ٱلْمُسَوِّفُونَ وَمَا مَثَالُ ٱلْمُسَوِّفِ مَنِ ٱحْتَاجَ إِلَى قَلْعِ شَجَرَةٍ فَرَآهَا لَا تَنْقَلِعُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ فَقَالَ أُؤَخِّرُهَا سَنَةً ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهَا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلشَّجَرَةَ كُلَّمَا بَقِيَتِ ٱزْدَادَ رُسُوخُهَا وَهُوَ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ ٱزْدَادَ ضَعْفُهُ

(ٱلثَّالِثُ) ٱلِاتِّكَالُ عَلَى عَفْوِ ٱللهِ تَعَالَى(١) وَعِلَاجُهُ مَا سَبَقَ وَهُوَ كَمَنْ يُنْفِقُ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ وَيَتْرُكُ نَفْسَهُ وَعِيَالَهُ فُقَرَاءَ مُنْتَظِرًا مِنْ فَضْلِ ٱللهِ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَهُ ٱلْعُثُورَ عَلَى كَنْزٍ فِي أَرْضٍ خَرِبَةٍ فَإِنَّ إِمْكَانَ ٱلْعَفْوِ عَنِ ٱلذَّنْبِ مِثْلُ هٰذَا ٱلإِمْكَانِ وَهُوَ مِثْلُ مَنْ يَتَوَقَّعُ ٱلنَّهْبَ مِنَ ٱلظَّلَمَةِ فِي بَلَدِهِ وَتَرَكَ ذَخَائِرَ أَمْوَالِهِ فِي صَحْنِ دَارِهِ وَقَدَرَ عَلَى دَفْنِهَا وَإِخْفَائِهَا فَلَمْ يَفْعَلْ وَقَالَ أَنْتَظِرُ مِنْ فَضْلِ ٱللهِ تَعَالَى أَنْ يُسَلِّطَ غَفْلَةً أَوْ عُقُوبَةً عَلَى ٱلظَّالِمِ ٱلنَّاهِبِ حَتَّى لَا يَتَفَرَّغَ إِلَى دَارِي أَوْ إِذَا ٱنْتَهَى إِلَى دَارِي مَاتَ عَلَى بَابِ ٱلدَّارِ

(ٱلرَّابِعُ) ٱلشَّكُّ وَهُوَ كُفْرٌ وَعِلَاجُهُ أَنْ يُعَالِجَ

لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَأْتِي رَبُّ ٱلْبَيْتِ أَمَسَاءً أَمْ نِصْفَ ٱللَّيْلِ أَمْ صِيَاحَ ٱلدِّيكِ أَمْ صَبَاحًا مرقس ١٣: ٣٥

(١) مُخِيفٌ هُوَ ٱلْوُقُوعُ فِي يَدَيِ ٱللهِ ٱلْحَيِّ عب ١٠: ٣١ لِأَنَّ إِلٰهَنَا نَارٌ آكِلَةٌ عب ١٢: ٢٩ وَلٰكِنِّي أُعَاقِبُكُمْ حَسَبَ ثَمَرِ أَعْمَالِكُمْ يَقُولُ ٱلرَّبُّ ار ٢١: ١٤

بعلم قريب يليق بجد عقله فيقال له كما قاله الأنبياء [٢] المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال أعلم استحالته كذلك هو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة إنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة فيقول أتركه لا محالة لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه إن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد [١] بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص

(١) لسانهم سهم قتال يتكلم بالغش بفمه يكلم صاحبه بسلام وفي قلبه يضع له كمينا أفما أعاقبهم على هذا يقول الرب أم لا تنتقم نفسي من أمة كهذه. ار ٩ : ٨ و ٩

(٢) ويصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين ولا تكون راحة نهارا وليلا للذين يسجدون للوحش ولصورته ولكل من يقبل سمة اسمه رويا ١٤ : ١١

أَبَدَ ٱلآبَادِ شَيْئًا فَكَيْفَ يَغْتَرُّ رَأْيُ ٱلعَاقِلِ فِي ٱلصَّبْرِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ مِائَةَ سَنَةٍ مَثَلاً لِأَجْلِ سَعَادَةٍ (٢) تَبْقَى أَبَدَ ٱلآبَادِ وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ أَنَّهُ قَامَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرَ وَقَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ ٱللهُ وَجْهَهُ يَا أَمِيرَ ٱلمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنَا عَنِ ٱلكُفْرِ عَلَى مَاذَا بُنِيَ فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بُنِيَ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ عَلَى ٱلجَفَاءِ وَٱلعَمَى وَٱلغَفْلَةِ وَٱلشَّكِّ فَمَنْ جَفَا ٱحْتَقَرَ ٱلحَقَّ وَجَهَرَ ٱلبَاطِلَ وَمَقَتَ ٱلعُلَمَاءَ وَمَنْ عَمِيَ نَسِيَ ٱلذِّكْرَ وَمَنْ غَفَلَ حَادَ عَنِ ٱلرُّشْدِ وَمَنْ شَكَّ غَرَّتْهُ ٱلأَمَانِي فَأَخَذَتْهُ ٱلحَسْرَةُ وَٱلنَّدَامَةُ وَبَدَا لَهُ مِنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُ

هٰذَا مُجْمَلُ مَا وَرَدَ عَنِ ٱلتَّوْبَةِ فِي أَقْوَالِ (٢) ٱلغَزَالِيِّ وَٱلتَّوْرَاةِ وَٱلزَّبُورِ وَٱلإِنْجِيلِ . وَٱللهُ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ هٰذِهِ ٱلمَجْمُوعَةَ نَافِعَةً وَهَادِيَةً لِلْكَثِيرِينَ إِلَى ٱلطَّرِيقِ وَٱلحَقِّ وَٱلحَيَاةِ إِنَّهُ ٱلسَّمِيعُ ٱلمُجِيبُ

آمِين

(١) وَلَا يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ لِأَنَّ ٱلرَّبَّ ٱلإِلٰهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ ٱلآبِدِينَ رؤيا ٢٢ : ٥

(٢) فَتِّشُوا ٱلكُتُبَ لِأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَهِيَ ٱلَّتِي تَشْهَدُ لِي يوحنا ٥ : ٣٩